

المغرب العربي ومنظومة الاستسراق في أدب الرحلة الأنجلوسكسوني خلال فترة الاستعمار

د. سميرة المشري (*)

لقد سهّل الوجود الفرنسي في المغرب العربي منذ احتلال الجزائر سنة 1830م توافد الرحّالة والزوّار الأنجلوسكسونيّين على المنطقة. ولقد ساهمت الحركة السياحية كذلك في مستهلّ القرن الماضي في استجلاب العديد من الأدباء والمفكرّين والبحّاث والمؤرّخين والفنّانين من الولايات المتّحدة الأمريكيّة وبريطانيا. وكان لما كتبه المفكّرون الفرنسيّون حول المنطقة الصّدى الكبير لدى هؤلاء. فكانت علاقة الأمريكيّ أوالبريطاني بالمغاربة أقلّ ميدانيّة ومباشريّة واحتكاكًا. فكان الرحّالة والباحثون والدارسون الأنجلوسكسونيّون عادة ما يتوارثون ويتداولون الكتابات والتّراجم الفرنسيّة عن الشرق وترجمة أنطوان جالاند (Antoine Gal-land) لـ ألف ليلة وليلة "Mille et Une Nuits" سنة 1704 م التي تواترت على إثرها التّراجم الأمريكيّة والبريطانيّة لهذا الكتاب وأشهرها

(*) أستاذة الإنجليزيّة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانيّة، بتونس.

ترجمة ريشارد بورتون (Richard Burton) بعنوان : "ليالي عربيّة" (Arabian Nights) لدليل على تبعيّة في المرجعيّة عند الأنجلوسكسونيّين. وكذلك فقد استرشد هؤلاء الرّحالة والدّارسون بتجربة الفرنسيّين الأدبيّة والميدانيّة في الجزائر خلال القرن التّاسع عشر (Chateau brilland, Lamartine, Flaubert) فاكستت فكرة المغرب لدى الأنجلوسكسوني صبغة فنطازميّة قبل كلّ شيء. فالمغرب منطقة قريبة نسبيا من أوروبا «It is not very far from home» ولكنه كذلك جزء من ذلك الشّرق المشرق البعيد الذي يتميّز بالغرانيّة (It is an exotice place) ويدخل المغرب بدوره في ثنائيّة الشّرق - غرب (Orient-Occident) وكانت أهمّ المواضيع الّتي تناولتها الكتابات الأنجلوسكسونيّة وخاصة منها أدب الرّحلة هي قضيّة المرأة والحجاب، والمسألة الجنسيّة، والإسلام الطرقي أو الشّعبي.

وهنا لا بدّ من وضع تمثّل أو تمثيليّة منطقة المغرب في إطار منظومة الاستشراق الّتي تناولها العديد من النّقاد العرب ومنهم أنور عبد الملك وعبد الله العروي ومحمد أركون، ولكن يبقى طرح إدوارد سعيد لهذه المسألة أكثر ملاءمة لدراستي هذه الّتي تتناول أثر الاستشراق في نماذج من كتابات الرّحالة البريطانيّين والأمريكان الّذين زاروا المنطقة في النّصف الأوّل من القرن العشرين. إن مسألة الاستشراق لم تظهر بجديّة إلّا عند البدء بالدراسات الشرقيّة الّتي أخذت شكل المشروعات البحثيّة بدقّة بعد حملة نابليون بونبارت على مصر سنة 1798 م. ومن المهمّ هنا هو أن نذكر بأن الإمبراطور الفرنسي كان قد تأثر في وضع خطّته بكتاب الكونت دوفولني - رحلة في مصر وسوريا - الذي ظهر عام 1787 م (1).

(1) سهيل عروسي، حوار الحضارات بين الواقع والطموح، دمشق، دار الينابيع، 2001، ص 92.

ويعرّف إدوارد سعيد الاستشراق كآلآتي : "الاستشراق كدائرة في الفكر والخبرة تشير بالطّبع إلى العديد من الميادين المتقاطعة : أولها العلاقة التاريخية والثقافية بين أوروبا وآسيا، وهي علاقة تمتدّ في 4000 سنة من التاريخ؛ وثانيها النظام التدريسي العلمي في الغرب والذي أتاح في مطلع القرن التاسع عشر إمكانيّة التخصص في دراسة مختلف الثقافات والتراثات الشرقية؛ وثالثها الافتراضات الإيديولوجيّة، والصّور والأخيلة الفانتازيّة عن منطقة من العالم اسمها "الشرق" مهمّة بصورة راهنة وملحّة بالمعنى السّياسي، القاسم المشترك النسبي بين هذه الجوانب الثلاثة من الاستشراق هو الخطّ الفاصل بين "الشرق" و"الغرب" وهو، كما جادت، حقيقة من صنع البشر أسميها الجغرافيّة المتخيلة" (2).

والميدان الذي يهمنّا هنا هو الميدان الثالث المتعلّق بمجموعة الافتراضات الإيديولوجيّة والأحكام المسبّقة والأخيلة الفنطازميّة عن منطقة الشرق بمشرقها ومغربها.

وسأتناول بالتّحليل في هذه المداخلّة تصوّر الكاتب الأمريكي بول باولس «Paul Bowles» للمعتقدات الشعبيّة في المجتمع المغربي في حقبة الاستعمار الفرنسي. فلقد زار «Paul Bowles» منطقة المغرب لأول مرة سنة 1931 م بقصد التجوال والتّعرف على المنطقة ولكنه سرعان ما تفتّن إلى القيمة الأنثروبولوجيّة للمغرب الأقصى ولغزارة المادّة التي يمكن أن ينسج من خلالها مقالات وسرديّات وطرائف عن الحياة العقائديّة الشعبيّة للسكّان والتي سيجمعها في ما بعد في كتابه «Their»

SAID Edward, Orientalism (London: Penguin Books, 1995), p 1. (2)

سعيد إدوارد، تعقبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير، صبحي حديدي بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996، ص 34.

«Heds Are Green and their Hands Are Blue» وستكون كذلك مصدر إلهام لكتابة قصص خيالية تصدر في لندن وفي ولايات عدة في وطنه الأم يلتهمها القراء بلهفة ألف ليلة وليلة. لم يكن بولس «Bowles» زائراً عادياً أو عابر سبيل. فلقد اتخذ المغرب مقراً له للقيام ببعض البحوث عن الفلكلور المغربي والإسلام الشعبي والطريقي وهكذا أصبح يقوم بدور الباحث اللانثربولوجي الذي يتمسك بالمكان وميدان البحث ويتملص شينا فشيئا من صفته كزائر أو سائح. وقد انتهى به المطاف بمدينة طنجة فاستقر بها حتى وفاته عام 1999م.

وتعتبر تجربة بول باولس «Paul Bowles» من أكثر التجارب تناقضا ولبسا. فلقد شعر الرجل منذ الوهلة الأولى بانجذاب وانبهار كبيرين بالمغرب ونصب نفسه باحثا وخبيرا لا مثيل له في الثقافة المغربية ومدافعا عن الفلكلور وحامي حمى الأصالة البربرية. فلقد تهجم في كتابه : رؤوسهم خضر (Their Heads Are Green) على الاستعمار الفرنسي لأنه عصرن الحياة في المغرب وأدخل أساليب تقنية وأسباب الحداثة حيث لا يجب أن تكون. فبالنسبة لبولس (Bowles) يكمن سرّ المكان في حفاظه على أصالته وطابعه التقليدي وغرائبية المغاربة وعجائبيّتهم تكمن في تشبّثهم بطقوسهم وعاداتهم المتمثلة في زيارتهم لأضرحة الأولياء واتباعهم للطرق الصوفية واستعمالهم للطب الشعبي واعتمادهم على السحر والشعوذة في تسيير شؤونهم الخاصة ويخص بالذكر هنا النساء. وفي سياق تخامله على الحضارة الفرنسية -لا شيء إلا حرمة من مشهد غرائبي طالما قرأ عنه في "ألف ليلة وليلة" وشوّهت صورة فنطازمية طالما كان يحلم بها - يستشهد الكاتب بالانثربولوجي الفرنسي لفي ستروس (Levi Strauss) الذي يشمنز من الحضور التقني والحداثي للغرب في الشرق حيث يقول : "أول ما

يكتشف المرء عند ترحاله كيف أنّ الغرب يلقي بنفاياته أوزبالتة في وجه الإنسانية" (3) :

«What travel discloses to us first of all is our garbage, flung in the face of humanity»

فبالنسبة لبول باولس «Paul Bowles» وفي ستروس (Levi Strauss) كمستشرقين لابدّ أن يتوفّر عنصر أو عامل البدائية في المشهد الشرقي وإلاّ انعدم أيّ نوع من التّواصل سواء كان حسياً أو ثقافياً أو أكاديمياً علمياً. لا بد أن يكون "الأخر بدائياً حتى يكون موضوع اهتمام. وهذا بطبيعة الحال ما يقوم عليه مشروع الحداثة في الغرب منذ القرن الثامن عشر للميلاد وهكذا يشرع المستشرق مبدأ المهمة الحضارية: (La Mission Civilisatrice) الذي قامت عليه الأمبراطورية الفرنسيّة. وينفي بولس (Bowles) كلّ تطوّر تاريخي في منطقة المغرب بما في ذلك الدّين الإسلامي إذ يعتبره دين التطوّر الموقوف، دين الشّرق المتخلف مقارنة مع الغرب المشرق ودينه المسيحي النموذجي. وهنا ندرج قول الأستاذ هشام جعيط في كتابه "أوروبا والإسلام" : "ففي حين أنّ المثقّف النّاقد يشكّ في مجتمعه، والانتولوجي يحاول الهروب منه أحياناً، فإنّ المستشرق يؤكّد على نموذجيّة مصير أوروبا. وهكذا يحصر الإسلام في عملية مواجهة حضاريّة مع الغرب. ويسير تاريخ الإسلام لا وفق ديناميكيّته الخاصّة، بل كانعكاس شاحب ومعكوس لتاريخ الغرب" (4).

(3) BOWLS Paul, Their Heads Are Green And Their Hands Are Blue , London, Abacus, 1963, p.7.

(4) جعيط هشام ، أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة ، بيروت، دار الطليعة، 2001، ص 40.

إنّ الدّين الإسلامي في نظر بول باولس (Paul Bowles) دخيل على منطقة المغرب، فهودين غازي، دين ذلك العربي المستعمر الذي زحف من شبه الجزيرة العربية. ويقول الكاتب الأمريكي في لقاء مع عبد القادر غندور : "لم يكن المغرب أبدا جزءا من الثقافة العربيّة الإسلاميّة، المغرب ليس بعربي، المغرب بربري، كان يجدر بالعرب أن يبقوا في ديارهم. لماذا أتوا إلى هنا" (5). بطبيعة الحال يذكرنا هذا الخطاب بنظريّة فرق تسد (Divide and Rule) التي اعتمدها الاستعمار الفرنسي في الجزائر للتفرقة بين العرب والبربر ولا بد أن لا ننسى تفضيل الفرنسيّين للبربر واتّبعاهم سياسة الإدماج والاحتواء في منطقة القبائل (the Policy of Assimilation).

فموقف بول باولس (Paul Bowles) السّلبّي من الإسلام لا يبيّن فقط تأثيره بالخطاب السّياسي الفرنسي ولكن كذلك تبعيته الإيديولوجيّة لخطابه الاستشراقي، فهو يسقط مواقف وأفكار تعرّض لها غيره أوتبنّاها في سياقات مشابهة. ففي المدارات الحزينة (Tropiques Tristes) يصف Straus Levi زيارته إلى منطقة جنوب شرقي آسيا وبالتحديد منطقة كشمير وراوولبندي : "يذكر ستراوس في المدارات الحزينة، بأنّه صادف أثناء رحلته في القطار بين كاشمير وراوولبندي، حدثا غريبا - مع أنّ الغرابة أمر شاذّ في عرف الأثنولوجيا البنيائيّة - يتعلّق المرء بامرأة باكستانيّة مسلمة، برفقة زوجها وأبنائها. كانت المرأة حسب وصف الكاتب منطوية على نفسها، مديرة ظهرها للغريب - أي ستراوس - مصرّة على عزلتها. كان لابدّ على العائلة أن تنقسم إلى قسمين : الأمّ والأبناء في الجناح المخصّص للنساء، في حين ظلّ الأب يحتلّ الأماكن

(5) ELGHANDOR'S Abdelhak interview, 'Bowles's Views of Atavism and Civilization', Journal of Maghrebi Studies, Vol 1, Number 2, Fall 99, pp. 77-94 (80).

المحجوزة، ناظرًا إلى الزائر الغريب شزرا. كان ذلك الموقف المخرج للأنتولوجي الفرنسية المبرّر اليتيم، لكي يمضي في عنفه - بلا هوادة - ضدّ الإسلام، ناسجًا له صورة قاتمة، لا تكاد تمتّ بصلة لذلك المنهج الذي أرساه قبلا، الصّورة التي حاكها عن الإسلام، نتيجة شعور عارم بالقلق تجاه تاريخيّة الإسلام المحيّرة. هذا الأخير الذي ما كان له أن يظهر في هذه البقعة من العالم، فيما لو نجحت محاولة الاتحاد بين العالم المتوسطي والهند. إنّ سترأوس لا يخفي حيرته من موقف الإسلام من التاريخ. هذا الموقف الذي يتناقض مع الموقف الغربي بل ومع ذاته أيضا، إنّ اتصال المسلم بالآخر، أمر مقلق للأول. وذلك أنّ نمط حياتهم قائم على نفى الآخر. لقد وضعهم نبّهم في مأزق تناقضي بين عالميّة الرّسالة، والقبول بتعددية الإيمان" (6).

وهنا نلتمس الحيرة نفسها عند بولس (Bowles) الذي أبدى قلقًا من "تاريخيّة الإسلام" فاختار أن يقصيه كدين سماوي متكامل ينظّم حياة النّاس فاخترل المعتقد في مجموعة من الرّموز والطّقوس تتمحور حول عالم الجنّ والسّحر والشّعوذة والمخلوقات الغريبة والولي والبركة والحضرة والزردة والموسم وغيرها من العادات التي تؤكّد له الأصول الوثنيّة لسكان المغرب. ويبتهج بولس (Bowles) لرؤية العيساويّة ويصبح المشهد الدّموي لاتباع هذه الطريقة من أجمل المشاهد عند الزائر، فهو يعيد الإنسان لإنسانيّته. فقد أتاح له هذا المشهد رؤية الإنسان في أجل صور وحشيّته وبدائيّته متعريّا من كافّة مظاهر الحضارة. هذا المشهد الذي وجد من أجله رحّالة مثل بول بولس (Paul Bowles) الذي عارض أيّ نوع من التّغيير في الساحة الثقافيّة،

(6) هاني إدريس، حوار الحضارات ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2002، ص 31.

والاجتماعية والسياسية المغاربية. لقد هاجم بولس (Bowles) في كتابه (Their Heads Are Green) الطبقة المثقفة من الشباب المغربي التي انخرطت في الحركة الوطنية في الخمسينات مطالبة باستقلال المغرب والتي رأت أنه تمهيد لإخراج المستعمر لابد من التخلص من مظاهر التخلف كالتردد على أضرحة الأولياء والسحر والشعوذة. ويعتقد بولس (Bowles) أن هذا الشباب المتهور سوف يقضي على كل ما هو أصيل وتقليدي في البلاد. وجاء الرد على لسان المفكر المغربي الكبير عبد الله العروي في كتابه الايدولوجيا العربية المعاصرة الذي تفتن للمؤامرة فانتقد بول بولس (Paul Bowles) قائلا : "لكن هل يدرك بولز فيما ينشر سوى هلوساته الدفينة ؟ يظن أنه يكشف عند محدثه الزمن الرأكد والوجود العاطل، في حين أن تلك هي تجربته هو مع الزمن ومع الوجود... لا أحد في الواقع، من سكان المغرب أو الصحراء، يتعرف على نفسه في صورة بولس التي تسطع المرء وترده قسرا إلى مستواه الفولكلوري، أي الأفريقي بالنسبة إلى مركز يجهله. إن بولس لا ينسلخ، ولا يستطيع أن يتسلخ، عن ثقافته الأصلية البورجوازية التي تفترض أن العينات البشرية السابقة عليها قد بادت واندثرت، ثم عندما تصطدم بإحدى تلك العينات، تدرك أن لها قيمة فتعتزم إنقاذ ذكرها. إن قيمة العملية كلها هي في حكم بولس على نفسه وزمانه" (7).

ويحيلنا هذا الاستشهاد للقول بأن الخطاب الاستشراقي خطاب غامض يحمل في طياته مواطن قوة ومواطن ضعف. فالرحالة

(7) العروي عبد الله ، الايديولوجيا العربية المعاصرة ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1999، ص 210.

والمستشرق الأنجلوسكسوني يصوّر الرّجل المغربي أو المرأة أو المدينة أو الفلكلور أو حتّى الإسلام في المنطقة بالاعتماد على مخزونه الفنطازمي حول الآخر بما يفرز تمثيلية مشوّمة ولكن في الآن ذاته فهو يفضح جوانب من الثقافة الغربيّة ويعري نقائص حضارته ليصبح أحياناً أكثر وعياً بذاته لتحرّره من بعض القيود وأحياناً أخرى أكثر تأزّماً في فضاء يخيب فيه ظنّه ويعيش الزائر الغربي أزمة هويّة يعبر عنها الرّحالة الأمريكي جورج أ. ووبري (George E Woodberry) بهذا السّؤال : "من أنا ؟" («Who am I ?») خلال زيارته للمدينة العتيقة بتونس في كتابه "شمال إفريقيا والصّحراء" (8).

(8) Woodberry George E, North Africa And The Desert : Scenes And Moods, London, Darf Publishers Limited, 1986.